تحت الأنقاض

أحمد حسن

يوم شاق آخر انتهى لا أدرى هل كبرت فى العمر؟! أم أن العمل مرهق للغاية؛ فمنذ وصولى إليه أنظر إلى عقارب الساعة التى تمر كسلحفاة تبلغ من العمر ثلاث مائة عام.. حتى تصل إلى الخامسة مساء فأجرى مسرعاً لسيارتى و أنطلق إلى منزلى. إن ما بينى و بين هذا المنزل عشق غريب لا أعلم هل هو منطقى أم ماذا؟! أقضى أسعد أيامى فى العطلات به، لا أغادره أبداً.

اسمى هادى أبلغ من العمر السابعة و الثلاثين، أعيش وحيداً، تمت خطبتى منذ عام من فتاة أحببتها اسمها سيدرا، و أنا على وشك إتمام زواجى آخر هذه السنة. لم يكن أمر زواجى بالنسبة لى بالسهل؛ فأنا أحب الوحدة بل أعشقها، لكن ضغوط والدى الذى يعيش فى الإسكندرية هو سبب زواجى لهذا بحثت عن شخصية أحبها فكانت هى. إن العقار الذى به منزلى مكون من خمسة طوابق، يسكنه خمسة عائلات لا علاقة بيننا سوى التصافح والسلام عند الالتقاء فى الدرج يومياً.

الطابق الأول يسكنه الأستاذ حمدى و هو ممثل مشهور، لا تجده كثيراً فى الشقه نظراً لانشغاله الدائم.. بالطبع تزوره الحسناوات و الكثير من الأوجه الجديدة الطامعة فى الشهرة لكن لا أكترث للأمر مع أن حارس العقار كثيراً ما كان يلمح للأستاذ حمدى عن طول مكوث الحسناوات لديه!

الدور الثانى تسكنه الحاجة دولت سيدة فى الثمانين من عمرها، أرستقراطية، هادئة.. لا أدرى من أى جهة تلقب بهذا. لا ترتدى حجاباً بل ترتدى ملابس فتاة فى العشرين من عمرها، و سليطة اللسان بسبب كبر سنها.

الطابق التالى يسكنه الشاب مدحت و زوجته الحسناء، ولا أعلم عنهم كثيراً فهم قد اشـــتروا الشـــقة تقريباً منذ عام ولا يتكلم عنهم عم آدم كثيراً. الشقة التى قبلى مباشرة تسكنها شيرين، توفى والدها منذ عام تقريباً، فتاة هادئة، كانت حبى الأول فى أيام المراهقة لكن بعد قرار أبى وأمى ترك القاهرة و الاســـتقرار فى الإسكندريه، تزوجت هى، و نسيت أنا الأمـــر تماماً.. علمت بعدما عدت أنهـــا تعيش هنا بمفردها و أن زوجها قد توفى، يالها من سيئة الحظ! زوجها ووالدها توفيا.. جاءت مصرّة أن تذكرنى بما كان بيننا، لكنى تظاهرت بالغباء و البلاهة أمامها، لا أريد أخذ دورى فى الحظ السيء.

أما أنا فكما تعلمون عدت إلى حبيبتى، أقصد شـــقتى، كان الســـبب المعلن لوالدى هو العمل لكن الســـبب الرئيسى هو أنى لا أشعر بأى راحة خارج هذه الشقة، سأعد عشائى ثم أجرى مكالمة لسيدرا ثم أخلد للنوم..

- كيف حالك حبيبتي؟

- بخير يا هادى بالطبع تحدثنى قبل النوم

- تعرفين يا حبيبتى أنى أعود مرهقا للغاية من العمل و أعد طعامى، فكما تعلمين أنى أعيش بمفردى.. .

ما يهون الأمر علىَّ هو اقتراب موعد زفافنا.

أعلم هذا و أتذكر، لا تخافى لم أنسَ الأسبوع القادم سيأتى العمال و معهم الأثاث الجديد.

- حبيبى كنت أود أن أقول لك شـــيئا رغم علمى برفضك الشديد، عـــرض على والدى أن نتزوج فى شـــقة فى عمارتنـــا الجديدة التى بالقرب منهـــا، ما رأيك فى هذا؟

هنا شعر هادى بتحرك المقعد الذى يجلس عليه..

نظر إلى الخلف إلى الجدار الذى عليه صورته المعلقة و هى تهتز..

شعر أن هناك زلزالا لمدة خمس ثوان، قبل أن يتوقف الاهتزاز قال لها: سيدرا أشعر أن هناك زلزالا.

- ماذا؟! زلزال؟! يبدو أنك تتهرب من الإجابة على سؤالى.. .

- لا لا أتهرب لقد شـــعرت بهذا حقاً و أنت تعرفين إجابة الســـؤال.. أتذكرين بعـــد خطوبتنا عندما قال لى والـــدك أن أقوم ببيع هذه الشقة و أن أشـــترى أخرى بالقرب منكم؟

- أعلم واعتقدت حينها أنك لا تريد التفريط فى الشقة، لذا عرضت عليك الاحتفاظ بها و أن نسكن فى شقتنا الجديدة.

- لا لا ولاأريد فتح هذا الموضوع مرة أخرى..

- كنت أعلم ردك هذا و لكن لا بأس.

- أحبك و سأعيش معك فى أى مكان، تصبح على خير.

أنهيـــت مكالمتى و ذهبت إلى غرفتى لأخلد فى النوم لكن قبل أن أذهب فتحت التلفاز لأشـــاهد نشـــرة الأخبار لأرى هل يوجد أى زلزال حدث أم لا..

لا يوجد أى ذكر لهذا الأمر!!

يبدوأن الإرهاق هوما جعلنى أشعر بهذا، أغلقت التلفاز والأضواء ونمت..

استيقظت على كابوس مرعب؛ فقد كانوا يقفون فوق رأسى و يشدون بأيديهم إلى الجدار، لم أتبين ملامحهم كانوا كالكائنات اللامعة و هيئتهم قبيحة للغاية، ظننت أنى مت و أنه قد حان وقت الحساب ولكن أذان الفجر أيقظنى.. . مرت الأيام حتى أتى يوم زفافى على سيدرا وتمت الزيجة لكن لم أكن أعلم أن وجودها سيكون فارقاً إلى هذا الحد، فهى ملاك على شكل إنسانة هادئة، رومانسية، تحاول إسعادى بأى صورة.. بدأت لا أستطيع العيش بدونها.. وبعد شهر بدأت تظهرعليها أعراض الحمل، سأصبح أباً! لم أكن أعلم معنى هذا الشعور إلا بعد سماع هذا الخبر منها، تحركت مشاعر جديدة.. حينها عرضت علىَّ الأمر مرة أخرى بأن ننتقل للعيش فى الشقة التى بالقرب من والدتها حتى تستطيع الاعتناء بها طوال وقت الحمل.

أعترف أنى كنت أحبها قبل الزواج لكن بعده أصبحت عاشقاً لها. قالت لي:

- هل مازلت مصراً على رأيك؟ صدقنى لن أحزن لكن أعلم أنك تخشى على و على ابننا أيضاً.

كانت الساعة قاربت الواحدة صباحاً، فكرت لدقيقة أو أكثر، منزلى الذى أعشقه أم سيدرا و راحتها؟! حسمت أمرى ولأول مرة أختار جانباً آخر غير منزلى و قلت لها:

- موافق يا حبيبتي.

فرحت بشـــدة و نهضت مســـرعة لتعانقنى ولكن فجأة سمعت صوت انفجار قوى ارتجت الجدران و اهتزت الأرض من تحتى و أظلمت الدنيا، و انهار المنزل: ضجيج، بكاء، جراح، ظلام.. لا أرى شيئاً، حطام يجثم فوقى لا أســـتطيع الحراك.. طوال حياتى مصـــاب بفوبيا الأماكن الضيقة، أشعر أنى داخل قبر و يضيق على الحطام و الأنقاض و الظلام الدامى... كنت أتجنب دائماً اســـتخدام المصاعد خشية سقوطها، إن لم أمت دفناً ســـأموت هلعاً. أدعو الله أن أظل حياً حتى يرفعوا عنى الأنقاض.

- أين سيدرا؟!

سمعـــت صوتها، الحمدلله أنها على قيد الحياة، اصمدى حبيبتى.. . سنخرج أحياء، دقائق و يرفعون الأنقاض..

سيدرا: هادى أنا أموت الآن، أنا أنزف كثيراً.

هادي: بالله عليكِ تماســـكى ســـنخرج معاً أرجوكِ ســـيدرا حبيبتى أرجوكِ..

ثم فجأه سمعت صراخا، إنه صوت الأستاذ حمدى.

كنت أظن أنه سمعنا أنا و سيدرا بعد إفاقته من الصدمة ولكن ماذا يعنى بجملة من أنتم؟!

ثم أكمل كلامه:

- حسناً حسناً سأقول لكم الحقيقة، لم يكن ذنبى ما حدث سأروى لكم، ولكن أخرجونى من تحـــت الأنقاض، إن مجالى هو من أجبرنى على أن أكون هكذا..

حلمى من أول الطريق أن أعمل بشـــرف و أمانة، لكن لم أنجح وفشلت و خسرت أموالاً كثيرة..

لم أكن أبحث عن المال فقط، كنت أبحث عن الشـــهرة و النجومية، أول عمل لى ظهرت فى مشـــهد خمس دقائق ولم يطلبنى مرة أخرى حتى جـــاء اليوم الذى جاءتنى دعوة لحفل فنى ففرحت كثيراً، كانت فرصة عظيمة للتعرف على شـــخصيات مشهورة فى هذا المجال.. ذهبت ومعى زوجتى، كان الحفل مبهراً.. من الممثلين المشهورين والمنتج يجلس بينهم كأنه ملـــك متوج، والكل يتودد له ويتقرب منـــه حتى الممثلين الكبار، فهو بالإضافة لشـــهرته كمنتج لديه صـــلات و معارف من رجال الدولة والمسؤولين و الصحافة.

صافحنـــى فى غرور كبير ورمق زوجتى التى كانت بجانبى ثم أعاد نظره علىَّ فى نظرة اهتمام غريبة ثم ابتســـم، لم أفهم حينها مغزى هذه الابتسامة!

ثم مال على شخص يبدو أنه مساعده أو شخصية قريبة منه و همس لـــه فى أذنه فنظر باتجاهنا هذا الشـــخص ثم نهض قادماً جهتنا، و فى كل خطوة من خطواته كان قلبى يخفق بشـــدة خوفاً و توتراً..

سألنى: ما اسمك؟

أجبته: حمدى شكرى.

أومأ برأسه فى استنكار ثم قال:

– لا أظن أنى أتذكر اسمك لكنى أعتقد أنى شاهدتك من قبل..

- نعم يا سيدى لقد مثلت عدة مشاهد و حلمى أن أصبح ممثلا كبيرا، و أرجو أن أنال هذا الشرف مع مخرجنا الكبير.

قاطعنى قائلاً:

- حســـناً حسناً إن السيد يدعوك على العشاء بمنزله الخاص، الدعوة لك و لزوجتك الساعة العاشرة مساء، لا تتأخر لأن السيد لا يحب التأخير ولا يحب من لا يحترم مواعيده..

و قبل أن أجيب تركنى و عاد بجوار المخرج و همس له فى أذنه فأشار له المخرج برأسه يعطيه الرضا.. و فى العاشرة مساء اليوم التالى كنت أمام المنزل. فتح لى الباب مدير المنزل و أدخلنا فى الردهة و قال: ســـيأتى الأستاذ ثم غادر المنزل ولا أعلم لماذا!

ثم حضر الســـيد.. لم يصافحنى و جلس أمامنا و ألقى لى بملف و قـــال: اقرأ هذا العمل و اختر أى دور تحـــب أن تمثله فيه إلا دور البطل، فغرت فمى، لم أصدق ما قاله، شـــعرت أن الدنيا تدور حولى.. . هل هذا حلم؟! أم أنه حقيقة؟!

نظرت إلى زوجتى التى كانت تملؤها السعادة..

ثم أكمل:

- ابدأ القراءة و اسمح لى أن أتحدث مع زوجتك فى الدور العلوى حتى تنتهى من القراءة، ثم ضحك ضحكة شيطانية..

نظرت لى زوجتى فى رعب، قلت:

- اذهبى حتى أنتهى من القراءة..

قالت:

- ماذا؟! هل أذهب؟! هل أنت موافق على هذا؟!

قلت:

- نعم اذهبي.

كنت أسمع صراخها و توسلاتها حتى يتركها، ولم أحرك ساكناً، لم أهتم ولم أعتنِ، كان كل همى أن أصبح نجماً مشهوراً..

هبطت من الدرج سريعاً تبكى و ملابسها ممزقة وأنا كنت مازلت أقرأ، بكت و بصقت علىَّ و ذهبت..

وعندما أتى السيد قال:

- أى الأدوار اخترت؟

أجبته على الفور:

- اخترت هذا الدور..

وبعد شهر انتهيت من تصوير دورى، كانت قد تركتنى زوجتى بالطبع و طلبت الطلاق ولم أستطع الرفض.

وعند عرض الفيلم فشل فشلاً ذريعاً ولم يطلبنى أحد بعدها لأى دور.

لكن أصبحت أعرف الطريقة جيداً، و كيف أقتنص الأدوار، قررت حينها أن أصبح مساعده الأول، آتى له بهن، و آخذ دورى فى أى فيلم.

نعـــم لم أصبح إلى الآن ممثلاً مشـــهوراً، لكنه علـــى الأقل اسمى فى القنوات، لم يكن هنـــاك طريق آخر لى.

انتهى الأستاذ حمدى من سرده و أنا أسمع..

ثم انتبهنا أننا محبوسون تحت الأنقاض، ودوت صرخة فجأة جعلتنى أقسم أن ما حدث كان مريعاً حقاً..

- هاااااادي سيدرا ستموت؟

- لا حبيبتى ستعيش من أجل ابننا..

و إذ بصرخة أخرى كانت هذه المرة الســـيدة دولت التى تسكن الدور الثانى كما تعلمون.

قالت:

- مـــن أنتم، ماذا تريدون؟! ثم مهلاً مهلاً، أليس هذا ما قاله حمدى؟! بنفس الصرخة و نفس الســـؤال، ثم حسناً حسناً سأسرد قصتى.. .

كنا توأم دولـــت و ألفت، بارعتان فى الجمال بـــل فاتنتان من أصل إنجليزى، و منه كان جمالنا، متطابقتان جداً لا يســـتطيع تفرقتنا عن بعض أحد حتى أمنا.

لكن بمجـــرد التعامل معنا و الحديث تســـتطيع، حيث كانت ألفت متميزة عنى بخفة دمها و روحها التى تجذب أى شخص لها، فهى لا تعتمد على جمالها، إنما اهتمـــت بروحها و تهذيبها، أما أنا فقد كنت مغرورة لأقصى درجة، لم أكن أعلم أن هذا ســـيجعلنى أخسر كثيراً، خصوصاً فى المناسبات عندما يلتفت الكل حولها ويتركوننى، فلنا ملامح واحدة

ووجهنا متطابق لكنهم يعشـــقون الحديث معها و أنا يجتنبون التعامل معى، و حتى أن كل العرســـان الذين يأتون كانوا يطلبونها هى فقط للزواج، أما أنا فلا صديق لى حتى. تزوجت هى من شـــاب مرموق يعمل فى وزارة الخارجية وســـيم للغاية، أما أنا فانتظرت بعدها أربع ســـنوات حتى تزوجت من عصام، لم يكن من مركز كزوجها ولا حتى مســـتواه الاجتماعى، لم أســـتطع الانتظارن و هكذا كنت ســـأنفجر من الغيرة. عارض أهلى كثيراً عصام نظراً لتدنى مستواه المهنى ولكنى أصررت عليه بالطبع، لم أكن سعيدة فى زواجى وهى كانت تعيش سعادة غامرة لكن لم يرزقها الله بالذرية طوال أربع سنوات، أما أنا فقد رزقنى الله توأمًا بعد ســـنة من الزواج، أرضى ذلك غرورى كثيراً؛ إذ أصبحت أتميز عنها فى شـــئ لكن لم يدم هذا الرضا كثيراً؛ فهى كانت راضية بقسمة الله و ما كتبه لها جداً، أما أنا فكان حقدى عليها و على زواجها من ياســـر يكبر. حتى أتتنى هذه الفكرة فى ليلة اتصلت بها متعللة بأن عصام أصيب فى حادث، وأنه نقل من الحادث فى مستشـــفى، كنت أعلم أن زوجها مسافر للخارج فى رحلة عمل، و طلبت منها أن تأتى بسيارتها لنذهب إلى عصام فى المستشفى، أتت ســـريعاً و تركت الأطفال، اصطنعت التوتر و القلق والبكاء، أدارت محرك الســـيارة و انطلقت وهى لا تعلم ماذا خططت لها، ســـألتنى عن الحالة، قلت لها إنه بين الحياة و الموت فى مستشـــفى على الطريق الصحراوى، فى هذه اللحظة رن هاتفى، إنه عصام عاد للمنزل. أغلقت الهاتف حتى لا ينكشـــف أمرى، كنت أصرخ فى وجهها لتســـرع منطلقة للحاق به، و بالفعل كانت تقود بســـرعة جنونية.

هنا قررت أنا فك حزام الأمان الخاص بها و تأكدت أن حزامى مازال مغلقاً ودفعت يدها بقوة من على مقود السيارة لتختل عجلة القيادة و تنقلب السيارة. أصبت أنا بالفعل إصابات بالغة، أما هى فقد فارقت الحياة وقت التنفيذ، وضعت بطاقتى الشخصية فى حقيبتها و أخذت بطاقتها، كذلك الهاتف المحمول، تأكدت من استبدال كل شئ حتى الملابس حتى أتت الإسعاف و تظاهرت بفقدان الوعى و ماتت دولت على الورق و عاشت ألفت.

ثم تركت عصام و أولادى و حياتى التى عشتها رغماً عنى و ذهبت للعيش مكانها مع ياسر، فى البداية شعر بتغيير لكنه لم يشك فى أمرى لكن لم يتحلمنى و كان يجب عليه تقبل عدم الإنجاب، فهرب عشقه لى، أقصد لها فلم يستطع العيش معى و طلقنى بعد خمس سنوات، وبعدها انتقلت للعيش هنا بأسى، فلا أحد يعرف قصتى هنا ولا أنا أعرف أحدًا.

كان لدى أموال أخذتها من ياسر بعد انفصالنا، مبلغ جيد يكفى للعيش، أما عصام و الأولاد لاأعرف عنهم شيئاً الآن إلا أنه تزوج بعد موتى بسنة و سافر خارج البلاد. سمعت همهمة ثم صوت دولت تقول: ماذا تفعلون بي؟! صرخت لكن هذه المرة كانت أشد و أقوى، و كأن تلك الصرخة حركت زلزالا فقد انتفضت الجدران واهتزت الأنقاض. سقطت فى ارتطام شديد، فجأة شعرت بجسد جانبى تحتها، من هذه؟! تحركت و أزحت الأنقاض عنها لكنى لا أدرى شيئا ثم سمعت صوتها الضعيف، أنا شرين يا هادى، أخيراً التقينا بمفردنا! سنوات، سنوات وأنا أحلم بهذه اللحظة و تحقق هذا الحلم الآن!

و قبل أن تكمل كلامها ظهرت أمامى، أضيء المكان من حيث لا أعلم، ثم ظهر من أضاء المكان. مخلوقات مضيئة يمشـــون على أربع، لا تهمهم الجاذبية، يســـيرون فى أى اتجاه ولا ملامـــح لوجوههم، أطرافهم طويلة للغاية يقـــف كل واحد منهم فوق رأس الذيـــن تحت الأنقاض بجانب شيرين و مدحت و دولت و حمدى و أمامى سيدرا، و يقف كل واحد منهم فـــوق رأس أحدهم، إلا أنا. وجميعهم صرخوا تلك الصرخة إلا ســـيدرا، فقد كانت مغلقة العينين، لا أعلم هل ماتت؟ أم هى فى غيبوبة أم ماذا ؟!

تحركت الكائنات ووقفت فى مواجهتهم، رفع الكائن يده أمام شرين ثم قبضها باتجاه وجهها فقالت شرين بصوت مرعب:

- حسناً حسناً سأقول!

- نعم أنا من دبر الأمر مع مدحت و هى فهم يمتلكون مركزا طبيا، و طلبت من مدحت أن يأتى لى ليلاً عندما كانت زوجته تتابع ورديتها فى الإشـــراف، إنهم يتاجرون فى أعضاء الأطفـــال حديثى الولادة، تعلمون كم أعشق هادى و تعلمون أيضاً أنه أصبح ملكها و يعشقها بل أكثر.. إنها تحمل الآن طفلة.

إذاً اكتملت الصورة الآن.. حتماً ستقتنع سيدرا بالولادة فى المركز ويتم حجزها بالعناية الكاملة وبعد الولادة، مدحت و هى سيكونان برفقة الطفل، ولكن هذا لن يحدث كثيراً؛ فلقد اتفقت مع مدحت بأن يحقنها بعقـــار يجعلها لاتتوقف عن النزف حتى تفـــارق الحياة بعد الولادة، هم سيفوزون بالطفل و أنا سأفوز بهادى.. نعم كنت أحتاج لأجعله يعود لى ولم يكن ليعود إلا بهذه الضربة القاسية.

بعد أن انتهت شـــرين من الحكـــى زأر الكائن الذى كان يقف أمامها زئيراً ارتجت له الأنقاض، وأخرج من فمه هالة ســـوداء باتجاهها، وإذ بها فى الحال مع الأنقاض تهـــوى كذلك مدحت وزوجته اللذين لم يكونا بحاجة لسرد قصتهما؛ فقد حكت شرين كل شئ عن جريمتهما، لم يتبقَ سوى أنا و سيدرا. التفت كل الكائنات أمامى ووضعوا أيديهم كلها فوق بعض، وظهر الوميض هذه المرة باتجاه رأسى و سمعتهم:

- أنت المختار منذ سنوات، أنت خادمنا وحارس العقار، نحن من نجمع الأشـــرار هنا ثم نجهز عليهم فهم يســـتحقون ذلك، سيســـجنون داخل جدران البيت للأبد، زوجتك ســـتلحق بهم لأنها كانت تريد إخراجك من المنزل فهى تســـتحق هذا جزاء . وآدم هذا لم يكن إلا شـــخصاً مجنداً معنا، بعد دقائق من الآن ســـيعود المنزل كما كان لكن خالياً و ســـتكون فوق كل شـــقة لافتة مكتوب عليها للإيجار، ليس عليك يا هادى سوى استقبال من يريد السكن، لا تقلق ستجد نفســـك توافق ولا تستطيع الرفض، ســـنجعلك تفعلها لأنك لا تعلم ماذا يخبئ كل ســـاكن جديد من خبايا حياته القذرة لكننا نحن نعلم! أنت عشـــقت هذا المنزل لهذا سنجعله ملكا لك أمامهم وحارســـه لنا.. وفجأة وجدتنى أجلس فـــى غرفة فى الطابق الأول التى كان يستقبل بها عم آدم السكان وهم يقفون على الجدار على أربع كعادتهم ووميضهم يحيط بى، نظـــرت فى المرآة فلم أعرفنى؛ فقـــد كنت على هيئتهم! لكن لا يرانـــى الناس هكذا.. ودق جرس الباب، الآن حان اســـتقبال الساكن الأول.